

فلسفة الكتابة عند أدونيس من كيمياء اللغة إلى البارديغم الفلسفي

الأستاذ: جويني عسال
جامعة تبسة

Résumé :

Le texte adonisien est en conceptuellement et pratiquement métamorphose, il constitue une rupture épistémologique avec le vécu poétique dans la dimension philosophique et civilisationnelle, du fait de son appui sur la dimension visionnelle et de part sa prise en considération d'une stratégie structuraliste qui constitue le goût esthétique incessamment variable, se basant sur la forme expressive qui change à travers ses liens avec les transformations cognitives. Il n'est point soumis à un complexe de beauté qui influencerait négativement l'âme de la poésie, mais il opte pour le significatif étant un point de départ de l'acte de la parole pour construire la question rétablissant la conscience artistique visant au point culminant des possibilités qui permettent le dépassement de la chimie de la langue vers l'abstraction, au texte trouvé c'est le thème auquel est intéressé ce travail.

ملخص البحث :

النص الأدونيسي متحول مفاهيميا وممارسة، إنه يشكل قطيعة إبستمولوجية مع الراهن الشعري في بعده الفلسفي والحضاري، من حيث اتكاؤه على البعد الرؤيوي واعتماده استراتيجية بنائية تشكل الذائقة الجمالية المتغيرة باستمرار و اشتغاله على الشكل التعبيري المتبدل في ظل التعاطي مع التحولات المعرفية. لا يستكين إلى مركب جمالي تختنق داخله ذاكرة القول الشعري، بل يقوض الدال كمرکز يتكئ عليه فعل الكلام، لينبني السؤال المشكل للوعي الفني ذهابا به إلى أقصى إمكانات التجاوز. من كيمياء اللغة إلى التجريد إلى النص المثقوب. هذا ما يطرّحه هذا العمل.

- فعل الكتابة وثورة الأنساق:

إن الكتابة فعل في حضرة القول وشبكة علامانية متمظهرة على المستوى الاستيطيقي خطابا مكثفا وفائضا عن المؤسسة اللغوية الأدبية الخاضعة لمنطق البنى النصية والمعرفية المؤطرة بمنظومة مفاهيمية منصاعة لمركزية الكلام، إذ تتأسس كتدمير لجاهزية اللغة >> حيث لا بديل عنها للتعبير عما تفيض به

النفس، وتتوق لجسه بحواس مشتتة، بل يستحيل أن نتخيلها تعلن استعدادا للتجاوز أو التجاوز مع طرازات إبداعية مملدة ومعززة بالتطور البيولوجي للحواسوما فوقها، ومؤسسة بالضرورة لإرباكات حقيقية تهدد سكونية ومحدودية الذاتية <<⁽¹⁾ وفق طرائق تجريبية ممثلة تزرع المفاهيم المطمئنة وتحو نحو التأمل والمراجعة، كونها تقع في منطقة بين المعنى sens واللامعنى no-sens، >> فاللغة يقطنها دوما آخر، خارج، ناء، بعيد، وفي جوفها يقبع الغياب، أو ليست مكان ظهور شيء آخر سواها، وفي هذه الوظيفة يتبدد وجودها ذاته ويضيع .

وعليه فنحن ملزمون إذا ما رغبتنا في وصف المستوى العباري، بأن ندخل في الاعتبار هذا الوجود ذاته، وبأن نسائل اللغة لا في الاتجاه الذي تحيل إليه، بل في البعد الذي يقدمها لنا كلغة <<⁽²⁾ حيث تستمد مشروعيتها من اختلافها لا انتلافها، >> الكتابة في قرننا الطالع إما أن تمارس بوصفها اختراقا، وبوصفها إحاطة معرفية، وإما أنها نافلة . الكتابة قائمة على السؤال، ولا يقدر السؤال أن يتواصل إلا إذا سار على الجسور التي تصل بين العلوم الدقيقة والعلوم الإنسانية، بين الفكر العلمي والفكر الرمزي، بين الكشف العقلي والكشف الحدسي <<⁽³⁾.

الكتابة اخترقت اللغة من الداخل، فقوضتها ومزقت جدارها الألسني، فأصبح الدال هامشيا والمدلول مركزيا، فتحوّلت الأنساق اللغوية إلى نظم هندسية وأيقونات بصرية قائمة على التشويش وصناعة المساحات الضوئية، >> وبهذا يصبح معنى الكتابة، هو بلوغ نقطة تتحرك اللغة فيها وحدها وليس الأنا، وفيها تتجزأ الكلام <<⁽⁴⁾، فما تحقّقه اللغة تلغيه الكتابة، لأنها وحدها من يكتب الصمت ويلغي الكلام، فهي تنزع إلى تحقيق فاعلية مؤسسة على ذائقة جمالية تنأى عن التطبيع مع السياقات المتمظهرة بالشكل الأحادي، تأكيدا لمقترح فني يمكن الاتكاء عليه في لحظته التاريخية >> فاللغة وإن كانت الحقل الأوسع للتجاوز الأدبي، باعتبارها النسيج الحي للمنتج الإبداعي، التي يدخل بها المبدع تجربة الكتابة، إلا أنها كعلاقة موضوعية، حالة عضوية وثيقة الصلة بمكونات اللحظة التاريخية والاجتماعية، بالمنظور اللوكاتشي، لا كمادة طارئة عنه النص، تهندس من الخارج، الأمر الذي يحقق التشابه الذي عناه فوكو بين الجماعة واللغة <<⁽⁵⁾، حيث تؤسس للرؤيا النصية، التي هي رؤيا العالم بتعبير غولدمان .

- عتبات اللغة ومرجعيات النص :

لقد شكل المنجز الشعري الأدونيسي في تحولاته الاستيمولوجية والجمالية رؤيا فلسفية وأموذجا معرفيا قائما على التمثل داخل اللغة كفعل أنطولوجي خاص، أفضى إلى خلخلة القيم الجمالية وتجاوز السائد اللغوي الكلاسيكي والرومانسي، وذلك من خلال التصالح مع الذات المبدعة، فقد >> تجاوزت الأدونيسية الهللة اللغوية للمهجرين، التي بقيت تراوح نحو لغة باروكية يفتتح طريقها البلاغي ويتناسل إلى ما لا نهاية <<⁽⁶⁾ فأُسست بذلك استراتيجية نصية، هي نتاج التراكم المعرفي والتاريخي، إلا أنها ارتبطت بتساؤلات التجربة

الصوفية والسريرية، مقارنة بالتحويلات الجمالية التي تشكلت فيما بعد في الكتابات ذات الطابع التجريدي .

على هذا الأساس يمكن قراءة بنية النص لأدونيسي ضمن مسار الهجرة في أقاليم اللغة، في إطار مراحل التمثيل الثقافي، فهي هو >> يعيد النظر تجاوزيا في لغة السائد (الثبات، التقليد)، تأسيسا للغة الأصل (التحوّل، الإبداع). المتعالي، الباطن، الغيب ما لا يرى، ما لا يسمى >> (7) ليعلن :
فالخطوي ورددت أبعادي:

«قد تكون الحياة أضيق من ثقب صغير في كومة من رماد» (8)

يستل هذا الكلام لغة النفري، فيعيد صياغتها تناصيا، مضفيا عليها هالة صوفية ونوعامن التسامي المطلق، في الفضاء الحضاري والثقافي للشاعر، فكأنها بيان شعري يطيح بالذائقة الجمالية المنصاعة لخطية القول، والعرف اللفظي، انفلاتا من تراكمات معرفية تقرأ النص داخل سياج دوغمائي يربك الحساسية الشعرية .
يقول النفري :

>> وقال لي أقعد في ثقب الإبرة ولا تبرح وإذا دخل الخيط في الإبرة فلا تمسكه، وإذا خرج فلا تمده، وافرح فإني لا أحب إلا الفرخان>> (9) .

تتشكل اللغة مجازيا، متجاوزة الدلالة الأحادية لاستنطاق المغيب وتغيب السياق، منفلة عن المعطيات النصية المسبقة، وبالتالي تهدف إلى تعطيل الوظيفة التواصلية لبناء المقترح الجمالي الجديد وذلك بالتمثل داخل اللحظة الراهنة للذات من خلال النسيج النصي الرمزي الموهل في التاريخ والمنفلة منسياجه>> فالشاعر مثلا لصوفي وشبيهه، فكلاهما مسافر دائما، ذلك أن الشعر هو السفر بحثا عن الإنسان والمعرفة والحقيقة والجمال والحب، سفر برزخي وعبور بين الصورة والمعنى، بين المادة والروح، فالجمال تحول وتغير سفري فيالنظر إلى الأشياء >> (10)، إنه اشتغال على المعجم الصوفي، نبوءة حلولا في حضرة الكلام البرزخي الذي لا يسمي الأشياء بقدر ما يعلن توحده فيها متمظها في وجودها :

وأهوي بيني وبينك، نسرا بآلاف الأجنحة

أسمع أطرافك الهادية

أسمع شهقة الخاصرة وسلام الأوراك

يغلبنني الحال

أدخل صحراء الجزع هاتفا باسمك

نازلا إلى الأطباق السفلى

في حضرة العالم الأضيق-

أشاهد النار والدمع في صحن واحد

أشاهد مدينة العجب

وتسكر أحوالي

هكذا يقول السيد الجسد⁽¹¹⁾

تظل المرجعية الصوفية هاجسا يؤرق النص الأدونيسي في تحولاته الجمالية وتشابكاته الدلالية، إنه نوع من الانتقال من هندسة القصيدة ونمطية الخطاب إلى كيمياء اللغة، وهدير الكتابة، تحضر بين ثنايا الكلام دوالا ذات رحم صوفي : الشهقة – السفلى – حضرة – الجسد، فتفارق مدلولها، وتغشى بهالة رؤيوية جديدة تتوغل الحاضر وتجربة الشاعر >> هكذا يمكن للشاعر أن يتخطى تخثرات القول الشعري كظاهرة إقفائية أو إلهابية بيانية فارغة إلى أفق رؤيوي فاحص، يقر بسماكة الحاجز الأزلي بين الإنسان كأصل للنص، وبين اللعبة البلاغية كهامش تعبيري تجريبي تتحرك على حوافه إمكانات اللغة >>⁽¹²⁾، لا يمكن في حال من الأحوال إلا أن يتعاطى الشاعر مع التاريخي والفكري واللغوي الآتي من نهايات الكلام المندس في الدلالة المؤجلة ضد كل ماهو مترسخ جماليا لأن >> الكتابة تفرض الكلام كثيرا وتعيقه أكثر >>⁽¹³⁾ بحيث يتحول الكلام إلى فعل في الكلام، ويصير النص متعبدا دلاليا، لا رغبة له في الانتماء إلى الماضي سيقا ومرجعا ورؤيا، لكنه ممتد في شرايين كلامه ملتصقا بخبرته وموسيقاه وأنيبه :

حينما أغرق في عينيك عيني

ألمح الفجر العميقا

وأرى الأمس العتيقا

وأرى ما لست أدري

وأحس الكون يجري

بين عينيك وبينني⁽¹⁴⁾

إنه بيان شعري يشير إلى الالتصاق برحم الأصل، وشهوة الماضي، متخطيا كلامه ومبيحا شكله، لهذا يعلن أدونيس فيقول >> لم يكن شكل القصيدة بالنسبة إلي هاجسا، فلم يخطر لي قط أن الشكل في ذاته يمكن أن يكون تجديدا، ذلك أن الشكل ذاته يمكن أن يبتكر بصناعة لفظية محضة >>⁽¹⁵⁾، ولهذا تبدو اللغة مظهرا للتحويل ومحاولة الانفلات من سطوة الماضي، لكنه يظل وفيا له معلنا عن حضور تلاوينه في ثنايا الكلام >> إن زمن التحولات لا ينقطع عن الماضي ولا يدمره تدميرا تاما، لا يسقط الماضي سقوطا تاما، بل يبقى معلقا على جدران الذاكرة، مستقرا الرؤيا الشعرية – بسلبياته وإيجابياته- وحافزا على بناء مستقبل جديد يتوالد باستمرار >>⁽¹⁶⁾، هذه الفاعلية الشعرية تنطلق من المروث متجهة صوب تحطي عتباته، وانتشال الذات المشيئة من أوهام الحداثة كما أعلن عن ذلك في أكثر من مقال ولعل أدونيس قد تجاوز الحدث الزماني ليؤسس مشروعاً كتابيا يرنو إلى انشال الواقع من فجاجة الأشياء، ولهذا فإن توقف مجلة شعر يرجع إلى الاصطدام بجدار اللغة التي انفلتت من جاهزيتها وفارقت الاعتيادي مخترقة بذلك المنظومات التوصيفية، ولهذا يذهب النص الأدونيسي بعيدا في مفرد بصيغة الجمع :

عربات النفي
تجتاز الأسوار
بين غناء النفي
وزفير النار

الريح ثقيلة عليناورماد أيامنا يلبسالأرض .نلمح روحنا في بريق شفرة أو
على

وفوق جراحنأ يتناثر خريف الممالح . (17)

- من كيمياء اللغة إلى النص المثقوب :

ينحرف الكلام مدمرا اللغة ومؤثنا لأنساقها، متعاليا عن الزمن المشيأ المتناثر
جراحات تنخر روح الشاعر، معلنا عن الزمن الآتي الذي لا انفصال عنه، إنه
السفر الدائم باتجاه التحول والانفلات من عقال الزمن ومن سياج النصوص التي
تطمس الذائقة الجمالية وتتغلف بالتوصيف وهوامش الكلام . تبدأ عملية الفقد فوق
الراهن اللغوي فيما بعد تدريجيا، ليكون الشاعر محاصرا بين المعنى
واللامعنى ويصير الشعر >> الحيز المفتوح للامحدد، بل أكثر من ذلك للعدم أو
السديم الذي يصير من خلاله المعنى ممكنا >> (18)، فيعلن الهجرة في أقاليم اللغة
:

ينبغي أن أسافر في جنة الرماد

بين أشجارها الخفية

في الرماد الأساطير والماس والجزء الذهبية

ينبغي أن أسافر في الجوع، في الورد، نحو الحصاد

ينبغي أن أسافر أن استريح

تحت قوس الشفاه اليتيمة

في الشفاه اليتيمة في ظلها الجريح

زهرة الكيمياء القديمة (19)

يؤكد أدونيس إعلان التحول إلى كيمياء اللغة، متخطيا الأسطوري والصوفي
والرمزي ليعلن لحظة بداية الفعل التجريدي، كتابة اللغة باللغة، وبناء النص
بالنص، كتابة تمحو الكتابة من خلال >> تقليص المسافة قدر الإمكان بين الذات
والموضوع، بلغة تنشد الفعالية الإنسانية، أكثر مما تراهن على المظهرية، ذهابا
بالغة إلى ما وراءها، إذ لا يوجد نظام لساني لا ينبغي شعورا أو يتحلل كذائقة
خارج اللغة >> (20)، وفق متطلبات هذا التحول السوسيونصي بدأت الكتابة
الأدونيسية تطفو فوق أنماط اللغوي السائد لتعلن الذهاب إلى الماوراء لغوي، إلى
أقصى حالات التمثل التعبيري، إلى التجريد.

اتكا أدونيس على الفعل التجريدي والرؤيوي - كفضاء سيميوطيقي - لإعادة
بناء الراهن الشعري وتأسيسه من ثمة هندسة بنياته السوسيوثقافية خارج الأطر
والقوالب الجاهزة، ذلك أن تجربة الكتابة تنبع من صميم الإدراك الذاتي للأشياء .

ومن جوهر الوجود ومن إكراهات اللغة، حيث لا تصنيف إلا داخل التمثلات الرمزية، إلا أن إمكان تمظهر أنساق خارج لعبة أنظمة الخطاب اللغوي في خضوعه للتناغم والانسجام داخل الحلقة التواصلية التي يفرضها الراهن الإبداعي يبدو من الصعب تأسيسه وإبانه سماته ومكوناته الجينية، في علاقته بالمعنى وزنبقية التمثل الجمالي والانتقائي الهستيري >> إنه التصور الذي يرفض في نفس الوقت أولوية ذات مبدعة مؤسسة لمعنى الأثر وكل شكل من المرجعية التي كانت في المرحلة الكلاسيكية تمنح البحث . إن هذه الذات المنظمة التي كانت قديما ملهمة ثم صارت في عصر النهضة المحددة لكل تمثل فني قد ضعفت تحت النقد النيتشوي للقيم، تحت نقد العقل الأداتي، مع اكتشاف التحليل النفسي للاوعي، وخاصة مع تعدد أنواع التحطيم التي ينجزها الفنانون أنفسهم>>. (21) فتحويلات فلسفة الكتابة إلى اكتشاف خلاق لدينامية اللغة المؤسسة على التعالق مع الهامشي، حيث أفضى هذا الأمر إلى اختراق الوعي اللغوي المؤسساتاتي، ومنه >>قطعت مختلف المدارس الطليعية، منذ بداية القرن 20، مع التقليد، بكسر في كل مرة، قواعد التشكيل والهيكل المجددة مسبقا وذلك من أجل تطوير فن لا شكلي، مجرد، مخالف للمألوف أو مفاهيمي والذي لا يأخذألبتة بعين الاعتبار لا معنى الأثر المكتمل أو مقياس الأسلوب >> (22)، ولهذا فإن النص الأدونيسييشكل عوالمه الدلالية المتنوعة استنادا إلى حدود اللغة المجردة، التصويرية، الرياضية، التي تقع في متاهة الكلام خارج التمثلات العينية، ليصبح مشروعا معبرا عن الممارسة المجنونة للفن ومعطلا أبعاد اللغة وحاصرا لحدودها، وهذا لإقامة معادلة الانحراف والكثافة والتشظي :

وهاهو الوقت

تجره أمه الشمس، وحولها سلاسل،

ودواليب تحرث الأرض،

والفضاء قنديل مطفأ (23)

من الدال اللساني إلى الدال الديجيتالي :

يذهب النص الأدونيسي في المدى المتخيل، يكسر الموجود ليبني العدم، >> والمعنى الشعري عدم، لأنه مسكون أو محكوم باللامقول الذي ينقال بعضه، ويظل بعضه الآخر محجبا، ممكنا عند تواصل ذاتين مقتدرتين على الحوار : ذات النص وذات قارئه >> (24)، الحوار المشاغب الذي ينصاع لدهشة الكلام حين يؤسس لمرجعياته الخاصة بعيدا عن اليومي سليل الدال المركزي، لاكتناه المغيب غي المنقال والمنقاد لما هو عرفي مسطح، هنا اللغة لا تقول بل تتشكل لغة تستنفد طاقتها الدلالية واللسانية، فتبدو علامة مشيئة موغلة في التكتم، إنها آلة الكلام المتخيل و>>لاستعادة الفعل التخيلي وجب التوجه إلى الداخل غير المرئي للحرية الشعرية >> (25) قصد بناء المعنى وتدميره في حضرة المتلقي المجرد، >>فالتخيل الشعري الراهن يتجاوز المتخيل المألوف بسبب ما تصنعه الآلة

الذكية من رسوم وصور باهرة (لوحات، تشبيهات، مجازات، استعارات، تمثيلات متداخلة) تشكل اللامنتظم، ذلك أنها تتجاوز المنسق والمتسق والمنسجم، وتتحدى المتخيل واللغة وأساليبيها وصيغها وطرائقها في التصوير>>(26)، تتجرد من الدال والمدلول بالتعبير اللساني، لتتحول إلى نص مثقوب، مرجيء للمعنى :

جسد - مخ معدني

جسد - فراغ

غير أنه مليء باحتمالات

تصطخب في راس الآلة

جسد لكي يكمل

أو لكي يعاد رسمه من جديد :

SDR - 3X

- وأنت، أيها الشاعر أيها العاشق

- بأي جسد ستكمل جسدك ؟

- ما ليس مجديا

- هو ما يجديني (27) .

جسد سيكتب النص، إنه الجسد الفيزيائي الموزع داخل علبة الذاكرة الإلكترونية، أي النص الرقمي (letextenumérique) المرقمن لسانا، لا بالمعنى التفاعلي، وإنما ذاك الذي يقوض سلطة الدال كمرکز في البنية النصية ليتموقع الدال الديجيتالي بديلا عنه، وهذا على المستوى المفاهيمي، حيث الكترونية النسق في فضاء الجسد المركزي، أس الكتابة ومسندها، معضلة القبض على الدال بدل المدلول الغائب في رقمنة النص بالمعنى الشعري >>فالمشكلة هنا في استخراج هذا الأس وفي لا نهاية عدد المسندات . فإذا استطعنا التقاط هذا العقل واستطعنا بالتالي عقلنة المتناهي العددي فسوف نقبض على الماهية الحقيقية التي تؤسس الجوهر وبالتالي المركز>>(28) ما المدى الذي يمكن للغة أن تصله في ظل غياب المرجع ؟ إن الوعي بالآلية اللغة كبديل تواصل جديد، يجعلنا نقف على متاهة النص، أو على الأقل نحاول الإحاطة باللامفكر اللغوي فيه، لتتحول الشعرية إلى لعبة سيميو ديجيتال :

طبقات التكوين السفلى ك ن

المصادفة بيت الكائن

لا آخر للكلام

لا خاتم للمعرفة .

طبقات التكوين السفلى ت س

موهي أمعاءك، أيتها التقنية، فيما تزدردين

جسد الكون (29)

إنه يؤسس للكتابة الآلية التي تقع فوق حدود الكتابة الكلاسيكية، إذ لا مكان للعقل والمنطق، وهي تقوم كما يرى أدونيس على :

- انعدام الفكرة المسبقة، أي التخطيط أو التصميم المسبق
- انعدام أي رقابة للوعي أو العقل
- انعدام النظام الكتابي التقليدي، كتابة تبدو ظاهريا أنها فوضوية بلا نظام وبلا مضمون

- انعدام الاهتمام الجمالي (بالمعنى التقليدي) والأخلاقي (بالمعنى التقليدي)
- الفيضانية، فهذه الكتابة نوع من فيض الكيان، فيض اللاوعي بحرية مطلقة⁽³⁰⁾

هذا النص الأدونيسي يتقاطع مع الفكر النيتشوي في إقامة معادلة التحول الفكري، والحضاري، وإحداث القطيعة مع الواقع والتمايز من خلال الارتقاء بالذات، والتسامي إلى الفيض من خلال تذويب النسق في رؤيا النص، وتجاوز الحقيقة إلى الشمول الكوني واللامتناهي المطلق >> «فالحقيقة ليست فيما يقال أو فيما يمكن قوله، وإنما هي دائما فيما لا يقال، فيما يتعذر قوله. إنها دائما في الغامض الخفي للامتناهي» >>⁽³¹⁾ فلا إدراك خارج الذات بالتعبير الصوفي، ولا فضاء للمعرفة إلا في انصهار الكلام بالسدِيم، باللامعقول :

المدائن تنحل، والأرض قاطرة من هباء
وحده الشعر، يعرف أن يتزوج هذا الفضاء⁽³²⁾

إنها اللغة التي تتجاوز العقل، وتنير الوجود وتسكنه بتعبير هايدغر، تبني حدود تشكلها بالتمظهر المجرد وتشظي الدوال وتفككها إلى مدلولات تتحول بطبيعتها إلى دوال جديدة، مما يؤدي إلى قتل المركزي وتشويهه والقضاء على الكلمة الأصل كما يرى دريدا، وتأسيس المتخيل الذي يشد الكلام إلى منتهاه فيقوم >> «بالتداخل الخارق والتناثر العجيب والتناسب المتكرر والمتشابه المبرز للنشطي التصويري والتخطيطات الشاسعة، أو كل ما هو معقد ومركب ومحير» >>⁽³³⁾، لغة النص الأدونيسي لا تبيح المركز بقدر ما تقض حدوده وتبعثر أنساقه في لعبة العلامات - المرقمنة، الموصولة بسلك الكترونيات اللغة المشحونة بتيار كهرو- نصي، بعيدا عن فعل الكلام كحدث >> في المعنى فهي لا تقول بمرجعية المركز ولا تنفي غيابه ولا تبقيه، إنها لا تعوض السيطرة الفاشلة بسيطرة تنفيها وتنبؤا مكانها . إنها لا تقول إلا بالآخر، بالشيء المغاير، أو بأكثر دقة، بذلك ((اللاشيء)) الذي يستعصي عن الحضور ويستعصي عن فاه من يريد النطق به >>⁽³⁴⁾ حيث لا يمكن للعقل أن يعيه إلا إذا انصهر في فيزياء الجسد :

زمن يتآكل ويحدوب . وما أشقى الإنسان الذي لا يرى أمامه، كلما تقدم، إلا القديم .
أظن أن السماء أخذة في الخروج من هيكلها المغلق .
أظن أن القيد الصغير المسمى عقلا، يكاد أن ينكسر .⁽³⁵⁾

إنها ثورة على مركزية العقل، الدال، الأصل، الأبوة .. بالمفهوم الدريدي، إنه الانفلات من حدود الكلام حين يؤسس للنسق، ويجرد السياق من وجوده كفضاء تواصل - جمالي ضمن حركية اللغة وأبعادها الميتالسانية، وعليه فقد تموقع النص الأدونيسي داخل المنظومة الثقافية الجديدة في أبعادها الحضارية والتقنية، متجاوزا التجريد اللغوي إلى النص الضوئي، الفيزيائي ذي الماهية الإلكترونية :

الحلم في الشعر ماء

وفي الفكر وردة .

يصعد على سلم الرؤيا محفوقا بالعممة، ويهبط مغمورا بالضوء .

باب اللاشيء

مفتوح دائما على كل شيء .

سأله الضوء :

((هل تسمع صراخي عندما أخرج من رحم الشمس ؟)) (36)

تتحول اللغة نحو الانحراف، تتوسد الدال البصري، وتنشحن بالمدلول المفارق للدلالة، دلالة شهوة الأصل (الماء)، وعنف الكلام المتشظى اختراقا للرمزي والاستعاري، متمظهراملفوظات ذات نظام أيقوني وصولا إلى النسيج المثقوب، وعليه يبدو ابستيمولوجيا أن النص الأدونيسي يتجاوز هذا الأسلوب، مستثمرا طاقات اللغة بلاغيا وعلى مستوى الصورة الذهنية، والإيحاء والرمز والتشكل الطاعي للأنظمة الفيزيائية، الأمر الذي يؤكد حقيقة التماس مع الوعي الراهن والميكانيزمات التي تؤسس للتحويلات التعبيرية و اضطراب تقنيات الإسناد اللغوي مما يفضي إلى تذويبالدوال وإقامة الفكر البصري الضوئي ذي الأبعاد الثلاثية (3d) حينها لا يرتبط الفن بالحقيقة، بل يصبح الحقيقة نفسها، فلا ينظر للأشياء إلا في وجودها الجيني - لغوي .

وقد أشار أمبرتو إيكو إلى ضرورة انتقال الفن الإنساني من النظام الكتابي إلى النظام المرئي، أي من الكلمة كدال ومدلول بالتعبير السوسيري إلى الرمز الرياضي وهندسة الأشكال >> فإحلال العنصر المرئي محل العنصر الملموس، والأهمية المعطاة في نفس الوقت للذاتية والقيمة التي انتقلت من الكائن إلى الظاهر في الهندسة المعمارية والرسم، كل ذلك يعود إلى الفلسفات والمدارس النفسية الجديدة للانطباع والإحساس، وإلى التجريبية التي اختزلت الواقع المادي الأرسطي إلى سلسلة من الأعمال الإدراكية >> (37)، والشعر لغة الفيزياء والضوء وإنارة الوجود حسب التعبير الهيدغري، يتجلى معطى ثقافيا ضمن الأنظمة التفاعلية والرقمية، أليس كل شئ أصبح خاضعا للبراديغم؟ أليست اللغة كائنا من الكائنات الرمزية ؟ >> هذه المحطات الأنطولوجية تنتج فضاءات بمعان مختلفة وتقرغ المفهوم من مضمونه الحسي تدريجا للوصول إلى التجريد المحض << (38)، حينها يعلن الشعر تماهيه في اللالغة بالمعنى السيميوطيقيا للقابع داخل

الوعي الجمعي حسب تعبير دوركايم، وتصير اللغة شكلا أوليا للوجود تتجلى فيه و تنتشهى إكراهات الدال خارج حدود الفائض المعنوي والسديمي عبر تداعيات النسق الثقافي .

على هذا الأساس تتموقع كتابات أدونيس الشعرية الجديدة، لتبدأ عملية تكسير الأنساق اللغوية وتشويه المعنى وتمزيق البناء الفني المؤلف عبر تمظهرات اللغة ضمن منظومة إنتاجية من العلاقات المتعارضة بين الدوال والمدلولات، حيث تتصلب الأبنية النصانية وتغدو علامات غير قابلة للإمساك، وذلك >> بهدم العلاقات التي تربط بين الحدث المعزول وسياقه الأصلي، وذلك لإدراجه في سياق جديد من خلال الرؤية الغنائية والموضوعية للفنان . ويتعلق الأمر هنا حقا بهدم عالم الثقافة – ومن خلاله – العالم كله . إن العملية لا تقع على الأشياء ولكنها تتحقق في اللغة، وباللغة وعلى اللغة >> (39) تبدأ الكتابة الأدونيسية باختراق المعمار اللغوي وفض الكلام، وتجاوز الواقع إلى الحدس والعقل وما وراء الأشياء، أن اللغة لا تقول وإنما تلمح لنقول :

طيور كثيرة في رأسي . قيود كثيرة في قلمي
تستطيع، مع ذلك أيها الوقت، أن تغسل وجهك في مائي المضطرب .
هيا، لا تردد (40)

كيف يمكن للغة أن تعلن حقتها في لحظة لا تقول أشياءها ؟. أليس مع ذلك يمكن لها أن تعلن أنها لا بد أن تقول، لا خارج الوجود، بل داخله، فهي المنتجة لصور العالم، فما قيود اللغة إلا طيور الفكر، يقول ميرلوبونتي إن الفكر الذي يعيش لذاته، دون الكلام، لا يعيش حتى لذاته، ويقول أيضا إن الكلام يتضمن فكرا، وهوما يعني تفعيل الاختلاف وتحطيم المعياري .

الكتابة تتحول إلى كتابة والكلام ينتج الكلام، والصورة ليست تشويها للواقع، بل انعكاس له بالتعبير الباشلاري، إنها إحالة على مرجع فينومينولوجيو انتهاك مستمر لقداسة اللغة، ومحاولة إرجاء مدلولاتها إلى مالا نهاية، وهذا لبناء ترميزاتها >> ووفق منطق سيرورات الترميز هاته لا يمكن للدلالة أن تكون جزءا من مادة تشكلها، فهي لا تكثرث للمادة الحاملة لها، إنها قابلة للتجسد في كل الأنساق الرمزية >> (41)، وهنا يعلن أدونيس تهلوي اللغة وبروز العتبات البصرية وبناء البعد التخيلي :

مرة، في دمشق،
نام المنطق بين يدي،
متكئا على عكاز مكسور .
وكان الشعر يسهر، راقصا .
مع كيميائ الأشياء (42)

ينكسر المنطق اللغوي، وتطفح الدلالة بكيميائ الأشياء، وتتحول الصورة إلى فتننة تلامس تخوم الكلام في لحظة يتجلى فيها الخيال إدراكا جديدا، ذلك أن الوعي

بالمدرک الحسی يتجاوز هذا الكلام إلى التفكير فيه كونه واقعة لسانية حادثة في المكان والزمان، >> حتى ليظهر الكلام كأننا معماريا فيما يقول . غير أن معمار اللغة في أدائه للمعاني كلاما، لا يقوم على معيار، ولا ينطبق بالضرورة على نموذج مسبق . والمعنى وإن كان يقوم على المطرد من القواعد لغة، إلا أنه يتشكل في الكلام معمارا على غير رسم يمليه الاطراد سواء كان قاعديا في اللغة، أم تكرارا في الطبيعة>> (43).

إن ما يفجر شعرية الخطاب ليس الاعتماد على الخيال المجازي بقدر الانصياع لهدير الكلام وهو يفتت المعنى، فيتشظى إلى دوال لا محدودة يغشاها العقل، فتبدو وكأنها ظلال لا تقول بقدر ما تهدد وتغشي سرا على حد تعبير بارت، إنها اللغة في لحظة عريها حين يصبح قدرها أن تتجرد من حسياتها لتسمو إلى مصاف الرؤيا، فتعبر حدود الفن لتقوض الجمالية التقليدية التي تنظر إلى الفن بوصفه شيئا قابلا للإمساك، >>ولهذا ينتقد هايدغر الجمالية في تفسيرها الميتافيزيقي للشيء، تنظر إلى العمل الفني من جهة الشيء، وليس من جهة أسلوب الوجود، تنظر إليه من جهة السطح كمنبه لإشارات حسية جمالية وكحشد من المعطيات المتعينة >> (44)، من هذا المنطلق فإن النص الأدونييسي يختزل اللغة في الذات حين تذوب في المنظومة المفاهيمية المعاصرة بما تحمله من وعي استراتيجي بالتحويلات المعرفية في مجال الإنسانيات والتقنية .

وختام القول فإن التحول الذي حدث في القصيدة الأدونيسية، سواء على مستوى الرؤيا أو البناء النصاني هو نتاج تحولات مفاهيمية شكلت سياقات معرفية جديدة تشابت على مستوى الأنساق أو الحضور كفعل مبرك لحيوية الجمالي في علاقته بالتمثل والحضور، وعليه فإن الأنظمة العلاماتية والرموز والصيغ الرياضية والفيزيائية ومنطق الذاكرة الآلية أفضى إلى خلخلة الفعل اللغوي واستراتيجية القول وكذلك كأداة للتواصل مما رسخ فكرة الفرضية النصية، كبديل للبداهيات الجمالية .

الهوامش والإحالات:

- 1- محمد العباس، ضد الذاكرة شعرية قصيدة النثر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000، ص 94 .
- 2- ميشال فوكو، حريات المعرفة، تر سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1987، ص 104 .
- 3- أدونيس، موسيقى الحوت الأزرق (الهوية، الكتابة، العنف)، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ص392 .
- 4- رولان بارت، هسهسة اللغة، تر منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، ط1، 1999، ص 77 .
- 5- محمد العباس، المرجع السابق، ص 118 .
- 6- عباس بيضون، الشعر العربي الحديث، مجلة آدب ونقد، مارس 2006، ع 247، ص 6 .
- 7- أدونيس، الصوفية والسوريالية، دار الساقى، بيروت، لبنان، ط 3، ص 175 .
- 8- أدونيس، الأعمال الشعرية، ج1، أغاني مهيار الدمشقي وقصائد أخرى، دار المدى، سوريا، دمشق، ط1، 1996، ص 99 .

- 9- النفري، المواقف والمخاطبات، مكتبة المتنبي، القاهرة، ط1، ص 75 .
- 10- سفيان زدادقة، الحقيقة والسراب، قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس مرجعا وممارسة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص 334
- 11- أدونيس، الأعمال الشعرية، ج3، مفرد بصيغة الجمع وقصائد أخرى، دار المدى، سوريا، دمشق، ص 44 .
- 12- محمد العباس، المرجع السابق، ص 105
- 13- Jacques derrida، - seuil، 1967، p19 .
- 14- أدونيس، قصائد أولى، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1988، ص 41 .
- 15- أدونيس ها أنت أيها الوقت، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص 113، 114
- 16- هدية الأيوبي، زمن التحولات في شعر أدونيس، مجلة فصول، الأفق الأدوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مج16، ع2، 1997، ص 43 .
- 17- أدونيس، مفرد بصيغة الجمع، ص 21 .
- 18- رشيدة التريكي، الجماليات وسؤال المعنى، تر إبراهيم العميري، الدار المتوسطية للنشر، تونس، ط1، 2009، ص 16 .
- 19- أدونيس، كتاب التحولات والهجرة في أقاليم الليل والنهار، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1988، ص 9 .
- 20- محمد العباس، المرجع السابق، ص 111 .
- 21- رشيدة التريكي، الجماليات وسؤال المعنى، ص 90 .
- 22- رشيدة التريكي، المرجع نفسه، ص 90 .
- 23- أدونيس، تنبأ أيها الأعمى، دار الساق، بيروت، لبنان، ط2، 2005، ص 10،
- 24- مصطفى الكيلاني، سؤال المعنى والمعنى الشعري، أول الشيء لأدونيس، مرجع سابق، ص 18 .
- 25- Jacques derrida، - ibid، p17 .
- 26- سامي أدهم، مركزية النص الشذرة جوهر القصيد، غياب المركز : النص العربي لا مركز له، مجلة كتابات معاصرة، مج 17 ع 66، 2007، ص 21، 22 .
- 27- أدونيس، تنبأ أيها الأعمى، ص 77 .
- 28- سامي أدهم، مركزية النص الشذرة جوهر القصيد، مرجع سابق، ص 21 .
- 29- أدونيس، تنبأ أيها الأعمى ص 124 .
- 30- أدونيس، الصوفية والسورالية، ص 135
- 31- أدونيس، الصوفية والسورالية، ص 188 .
- 32- أدونيس، كتاب الحصار، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط2، 1996، ص 23 .
- 33- سامي أدهم، مركزية النص الشذرة جوهر القصيد، مرجع سابق، ص 22 .
- 34- عبد العزيز بن عرفة، جاك دريدا، التفكير والاختلاف المرجأ، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، ع 48، شباط، 1988، ص 75 .
- 35- أدونيس، تنبأ أيها الأعمى ص 189 .
- 36- أدونيس، فضاء لغبار الطلع، دار الصدى، دبي، ط1، سبتمبر، 2010، ص 55 .
- 37- أمبرتو إيكو، الأثر المفتوح، تر عبد الرحمن بوعلي، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط 2، 2001، ص 32 .
- 38- سامي أدهم، الطريق المسدود رواية المستحيل التفكير فيه، حدود التأويل، استحالة التطوير، ثابت يتغير، مجلة كتابات معاصرة، مج 21، عدد 82، 2011، ص 30 .
- 39- أمبرتو إيكو، المرجع السابق، ص 103 .
- 40- أدونيس، وراق يبيع كتب النجوم، دار الساق، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص 8 .
- 41- سعيد بنكراد، سياق الجملة وسياقات النص، الفهم والتأويل، مجلة علامات، ع 33، 2010، ص 6 .
- 42- أدونيس، وراق يبيع كتب النجوم، ص 23 .
- 43- منذر عياشي، الكتابة الثانية وفتحة المتعة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1988، ص 59 .
- 44- علي الحبيب الفريوي، مارتن هايدغر ((الفن والحقيقة)) أو الإنهاء الفينومينولوجي للميتافيزيقا، دار الفارابي، بيروت ولبنان، ط1، 2008، ص 152 .